



## برسى ييش شلي

١٧٩٢ - ١٨٢٢ م

آراؤه في الذّود عن الشعر

(٢)

اللغة واللون والصورة والحوادث الدينية والمدنية كل هذه مواد وأدوات للشعر، فهي يمكن أن تعتبر شعراً إذا قيست بذلك النوع من الكلام الذي يعتبره الأثر مرادفاً للعب الباعث. ولكن الشعر حسن أكثر فيوداً يعبر عن حالات اللغة لا سيما المنظومة التي تخلق بواسطة تلك الملكة الجبارة التي يستتر عرشها وراء طبيعة الإنسان الخفية. وهذه تنبع من نفس طبيعة اللغة التي هي أقدر على الافصاح بجلاء عن أعمالنا وأهوائنا الداخلية، والتي تحسر بالركبات الأكثر دقة واختلافاً من اللون والصورة والحركة وألين وأطوع لسلطة تلك القوة المتكررة لأن اللغة قد نشأت طليقة بواسطة الخيال ولها صلة بالافكار وحدها؛ ولكن سائر مواد وأدوات وشروط الفن الأخرى لها صلات بسائر أجزائها التي تدخل بين الشهور والافصاح. فالأولى كاللراة التي تشع، والأخرى بمثابة السحاب الحاجب للنور الذي يعتبر كلنا الاثنتين بمثابة وسائل اتصال. لذلك كانت شهرة المثالين والرسمين والموسيقين - مع أن القوى الجوهرية لا سأتذة هذه الفنون العظام يمكن أن تخضع بدون حد إلى شهرة أولئك الذين يستخدمون لغة هيروغليفية في الافصاح عن أفكارهم - لن تدنو من شهرة أولئك الشعراء في أضيق معاني هذه العبارة. وإن شهرة المشرّعين وموجدى الأديان على قدر دوام تعاليمهم تظهر وحدها بأنها تفوق شهرة الشعراء في أضيق معانيها ولكنها فلما نصلح لأن تكون سؤلاً. لقد أدخلنا كلمة شعر في حدود هذا الفن الذي هو أكثر اتصالاً وأتم تعبيراً للملكة ذاتها ومع ذلك فن الضروري أن يجعل الدائرة أضيق، وأن تفصل بين اللغة المحدودة والغير المحدودة لأن التقيم

المعروف إلى نشر ونظم لا ترضاه الفلسفة الدقيقة . والأصوات كالأفكار يتصل كل منهما بالأخرى والانتان تتصلان بذلك الذي تمثلانه ، والشعور بنظام هذه الصلات يجب أن يرتبط بشعور نظام الصلات للأفكار . لذلك كانت لغة الشعراء تظهر دائماً بلون خاص وصدى موسيقي متوافق للصوت وبدونه لم تكن شعراً بل أقل أثراً من الكلمات نفسها ، ومن هنا كان بطلان الترجمة . فن الصواب أن تلقى ببساطة في بوتقة لتكشف عن نظرية تكوين لونها ورائحتها كما تبحث عن نقل آثار شاعر من لغة لأخرى . وإن مراعاة تلك الطريقة النظامية لصدى توافق النغمات في لغة أصحاب المدارك الشعرية مع صلتها بالموسيقى قد أوجدت وزناً خاصاً للصور التقليدية للنغمات المترافقة واللغة ، وهي بلا نزاع جوهرية . أتى على الشاعر أن يدخل في لغته هذه الصورة المستحدثة حتى يتسنى للنغمات المتألفة التي هي روحه أن تظهر .

وحقاً إن التجربة عامة ومرجحة ويجب أن تقدم لاسباب في مثل هذا الموضوع الذي يشمل عملاً كثيراً ، ولكن يتحتم على كل شاعر عظيم أن يبدع على مثال أسلافه في تأليفه الأصلي لنظمه الخاص .

والتفريق بين الشعراء والكتّاب غلطة شنيعة ، والتميز بين الشعراء والفلاسفة سابق ، فقد كان أفلاطون شاعراً . فإن صدق تصويره وروعته وموسيقى لغته وأكثر الأشياء عمقاً ودقة يمكن أن تظهر فيه . وقد نبذ حدود القصة ولم يرض بالصور التمثيلية والفنائية لانه أراد أن يجي النغمات المتألفة في الأفكار طارية من الشكل وعمد الى اختراع طريقة منظمة للوزن يمكن أن تضم تحت صور محكمة خطوات أسلوبه المتنوعة . وقد حاول شيشرون أن يحاكي ألحان زمنه ولكنه لم يوفق كثيراً . وكان اللورد ليكون شاعراً وكان لغته تفعيل عذب رائع يشع الحر ولا يقل عن حكمته السامية في الفلسفة التي ترضى العقل فهي أسلوب يأخذ في الانتفاخ حتى يفر محيط عقل القارئ وينساب معها في ذلك المنشأ الشاسع الذي يجوى الشعور بالعطف الدائم . وكل موجدى الثورات الفكرية ليسوا شعراء بالضرورة فقط كما اتهم مبتكرون وليسوا كما تكشف كلماتهم عن التحليل الحقيقي للأشياء بواسطة الصور التي ترتبط بحياة الحق ولكن لان عهده كانت متألفة النغمات ومنظومة وتحمل في باطنها عناصر الشعر . كانوا صدى للموسيقى الخالدة . وأن أولئك الشعراء العظام الذين استخدموا صوراً حديثة في الوزن على حسب مقتضيات صورة وعمل مواضعهم ليسوا أقل

مقدرة على فهم حقيقة الأشياء من أولئك الذين تجاهلوا تلك الصورة ، فشكيب ودانتى وملتون « إذاعدنا أنفسنا في زمرة الكتاب الحدينين ، فلاسفة من أسمى نوع . فالقصيدة هي الصورة الحقيقية للحياة مشروحة على حقيقتها الأبدية ، وهذا هو الفرق بين القصة والقصيدة لان القصة قائمة حقائق مفككة لا يجعلها متماسكة إلا الزمان والمكان والظروف والسبب والاثر الناتج - أما الأخرى فهي خلق حوادث بالنسبة الى تلك الصور العديدة التغير للطبيعة البشرية كما نجيا في ذهن الخالق الأعظم والتي هي صورة لسائر العقول الأخرى .

فالأولى متحيزة وترمز فقط الى مقدار محدد من الزمان ، وبمجموعة معينة من الحوادث التي لن يتسنى لها أن ترجع ثانياً ، أما الأخرى فهي طالية وتحوى في داخلها جرثومة الصلة بكل الاواقع والأعمال التي تتخذ لها موضعاً في تغيرات الطبيعة البشرية الممكنة .

والزمان الذي يشوّه جمال القصة وفيها ذات الحقائق الخاصة والتي زعت من الشعر الذي يمكنه أن يستنرها يزيد في الشعر ويضيف استعمالات جديدة وعجيبة لذلك الحق الخالد الذي يشتمل عليه .

لذلك دعيت المختصرات عنه التاريخ الحقيقى فهي تأتي على ما فيه من الشعر . فالقصة ذات الحقائق الخاصة مرآة تخفى وتشوّه كل جميل ، والشعر مرآة مجمل كل قبيح .

يمكن أن تكون أجزاء التركيب شعرية دون أن يكون كل التركيب مجتمعاً قصيدة وقد تعد الجملة الواحدة كجموعة مع أنها قد توجد بين عدة أجزاء غير متجانسة بل قد تكون الكلمة بمفردها شرارة لفكر لن يحبو ، وعلى ذلك كان كل المؤرخين المظام هيرودوتس وبلوتارك وليفى شعراء ، ومع أن طريقة هؤلاء لا سيما طريقة ليني قاطمهم . - تنمية تلك الملكة في أسمى درجاتها فقد استعاضوا عنها بملء تلك الفسحات الضيقة في مواضعهم بصور حية ، وإذ قد فرغنا من ماهية الشعر والشعراء فدعنا نشرع الآن في إظهار آثاره في المجتمع الانسانى .

يقترن الشعر دائما بالسرور فكل الأرواح التي يهبط عليها نهيء نفسها لقبول الحكمة المترجة ببهجته . في طفولة العالم لم يكن الشعراء أنفسهم ولا المتعمون لهم طرفين تماماً تماماً عظمة الشعر لانه يعمل في طريق سام لا يدركه إلا الوجدان .

وقد حفظ للاجيال الثانية لتقدير ومجدد السبب والأثر العظيمين في قوة وجلال وحدتها .

حتى في الأزمان الحديثة لم يصل شاعر إلى تمام شهرته : فاجنة المحلفين التي تجتمع لتقضى على الشاعر الذي ينتسب لجميع العصور يجب أن تشكل من أقرانه ويجب ألا تقيد لزمان عند اختيار نخبه من عقلاء عدة عصور .

الشاعر كالبلبل الذي يجلس في الظلام ويصدح ليمدد وحشة وحدته بأنغامه الشجية ، والصاعون إليه كأولئك الذين سُحروا بنغم موسيقار متوافق فيحسون بأنهم اهتزوا وطربوا ولكنهم لا يدرون متى وأماذا .

فقصائد هوميروس ومعاصريه كانت بهجة الإغريق الأولين إذ كانت العناصر الأولية لذلك النظام الاجتماعي الذي هو بمثابة العمود الفقري الذي ارتكزت عليه سائر المدينيات المتتالية . فقد صور هوميروس المثل الأعلى لعصره في صور إنسانية ولن ترتاد في أن أولئك الذين يقرأون أشعاره تصيقت فيهم غريزة الطمع بأن يصبحوا مثل آخيل وهكتور ويوليس وبولبسيس خق وجمال الصداقة والوطنية ودوام التمسك كل هذه كشف عنها في هذه الآثار الخالدة . وأحاسيس المنصنين يجب أن تنق وتعظم بالانعطاف نحو هذه الشخصيات المحيية العظيمة حتى أنهم لفرط إعجابهم حاكوها ولا أنهم حاكوها وقتلوا أنفسهم على أغراض إعجابهم .

ولا يجوز الاعتراض بأن هذه الشخصيات أقدم من درجة الكمال الأخلاقي ، وبأنه يمكنها بلا واسطة أن تعتبر أسماً قويمة للمحاكاة . فكل عصر قد أكرم من غلطاته الشيعة تحت ستار أسماء متفاوتة في الظهور قلة وكثرة . فالانتقام هو المعبود المأري لذلك العصر النصف الممجي ، والغرور هو الصورة التي تكسو الشر الحجوة الذي يمجد أمامه الترف والشبع . ولكن الشاعر ينظر إلى نقائص معاصريه كأنها ثوب مستعار مزين بأياته والذي يستر دون أن يخفى تقاسيم جاهلهم الخالدة وجمال الطبيعة الداخلية لم يعد يلفه منظرها الخارجي ولكن روحها تتصل بالصورة الخفية جداً وتم عن الشكل الذي يخفيها بالحالة التي تلبسها ، فالشكل الرائع والحركات الرشيقة تكشف عن نفسها حتى في ثوب الممجي الذي لا دوق له .

وقليل هم الشعراء الممتازون الذين أفصحوا عن جمال تصوراتهم في صدق وجلال بارزين .. وكل ما يعترض على مناقاة الشعر للأدب يقع في سوء فهم السبيل الذي

يتخذ الشعر في إبراز الإصلاح الأخلاقى للإنسان . فالعلم الأخلاقى يقوم بترتيب العناصر التى يأتى بها الشعر ويعرض تدابير وأمثلة الحياة العائلية . وليس من التعاليم المحبوبة أن يضر الناس الكراهية والاحتقار والضرر والايقاع والفتك بعضهم لبعض . ولكن الشعر يعمل فى طريق آخر أسمى فهو يوقظ ويوسع العقل بأن يجعله حاوياً لروابط كثيرة للفكر غير مدركة ، فهو يرفع الستار عن جمال العالم الخفى ويجعل الأشياء العادية كأنها أشياء غريبة عنا وان أعظم أسرار الأخلاق هو الحب أو الخروج على طبيعتنا وربط نفوسنا بالجمال الذى يوجد فى الفكرة والعمل أو الضخم ولا تملكه . ولكى يكون الانسان على جانب عظيم من الصلاح ينبغى له أن يفهم جيداً أنه يجب عليه أن يضع نفسه مكان شخص آخر بل أشخاص كثيرين غيره فصبح آلام ولدات غيره آلامه ولداته الخاصة . وأحسن وسيلة لصالح الأخلاق هى الخيال ، والشعر يعطى هذه الوسيلة بتأثيره فى الباعث ، فهو يوسع دائرة الخيال بأشباعه بأفكار غاية فى جدة السرور ولها سلطان جذب وملاعبة سائر الأفكار الأخرى لطبيعتها الخاصة التى تخلق فترات جديدة وفضحات ضيقة يتوق فضاؤها دائماً إلى طعام شهى .

والشعر يقوى تلك الملكة التى هى بمثابة عضو الطبيعة الأخلاقية فى الانسان كما يقوى العضو بالمران . لذلك قد يخطئ الشاعر فى إدخال شعوره الخاص بالصالح والردىء - اللذين هما من عمل زمانه ومكانه وموطنه عادة - فى نتاجه الشعرى الذى لا يتصل بأحد منها .

فأولئك الذين ملكتهم الشعرية عظيمة إلا أنها أقل حدة كأوربيد ولوكان وتاسو وسبسر قد تناولوا عرضاً أخلاقياً . وأثر شعرهم قد ضعف بالنسبة إلى الدرجة التى يضطروننا فيها إلى أن نتيقظ إلى غرضهم هذا .

وقد خلف هو ميروس ومن عاصره من الشعراء فى فترة معينة الشعراء المرحيون والشعراء الغنائيون فى أئينا الذين ازدهروا فى عصر بلغ ذروة الاتقان فى الافصح عن جميع أنواع الملكات الشعرية من بناء وتصوير وموسيقى ورقص وفلسفة . وبمكتنا أن نصيب إليها فنون المعيشة المنزلية . ومع أن خطة الجمعية الاثينية قد شابها كثير من النقائص التى قضى عليها شعر الفروسية والميجبة من عادات ونظم أوروبا الحديثة إلا أنه لم يأت عصر كان فيه النشاط والجمال والفضيلة أكثر ظهوراً منه ولم تكن القوة الغشوم تخضع لارادة الانسان أو الى تلك الارادة الأقل كراهية لمستزمات الجمال

والحق كما كانت في القرن الذي سبق موت سقراط . وليس لدينا عصر في تاريخ البشرية غني بالوثائق والمقتطفات وعليه طابع ألوهية الانسان . ولكن هو الشعر وحده في صورته وفي مجته وفي لغته الذي رفع هذا العصر على سائر العصور الأخرى ، فهو مستودع عبر لعصر خالد . وقد طاش الشعر في ذلك العصر بجانب الفنون الأخرى وانه لبحث عقيم أن نسال عن أيها كان مرسلأ النور وأيها كان مستقبه ، فكلمها كانت بمثابة نقطة الاحتراق التي أزاحت غياهب ظلمات العصور التالية . وقد كان في ذلك العصر الذي أشرنا اليه أن وجدت الدراما ومهما كان من محاوله كتاب العصور التالية أن يأتوا بمنزل هذه الدرامات الاثينية التي وصلت اليها فانه من المسلم به أن الفن نفسه لم يفهم أو يطبق على حسب فلسفته الحقيقية كما فهم وطبق في أثينا لان الاثينيين استخدموا اللغة والحركة والموسيقى والتصوير والرقص والتعاليم الدينية ليوجدوا أثراً عاماً في الافصاح عن مثلهم العليا في العاطفة والقوة . وكل فرع من فروع الفن قد نال نصيبه من الجودة والاثقان بواسطة فنانيين ذوي مهارة فائقة ورتب ترتيباً منسقاً جيلاً الواحد نحو الآخر .

أما في المسرح الحديث فقليل من العناصر الزعيمة بالافصاح عن شعور الشاعر يمكن أن تؤدي مرة واحدة : فعندنا مأساة خالية من الموسيقى والرقص ، وموسيقى ورقص مجردان من أسمى الشخصيات اللازمة لهما ، وكلا الاثنين قد خلا من التدين والوقار ، فقد أبعدت التعاليم الدينية عن المسرح تماماً وإن نظام تجريد وجه الممثل من النقاب الذي ينبغي أن يفرغ فيه كثير من الملامح التي تلازم للنوع المثبلي إلى حياة واحدة ثابتة لا تتغير قدينامب فقط الأثر الجزئي الغير المتزن فهو لا يصلح لشيء إلا للتلوج حيث يكون كل الانتباه موجهاً إلى أستاذ عظيم في التقليد الهزلي .

نظمى خليل



## جون كيتس

(١)

لا يسع المولعون بالأدب الإنجليزي ، وبأدب القرن التاسع عشر على وجه الخصوص سوى الإعجاب بهذه الشخصية النادرة الفذة ، شخصية الشاعر كيتس ، لا لأنه شاعر بارع مجدد في الشعر الإنجليزي في عصره حسب ، ولكن لكونه نبع وكتب آثاره الخالدة على العصور وهو في فجر الشباب ، ومات بصد أن ترك دويلاً لا يزول إلا

بزوال الدنيا ، وكتب اسمه في الخالدين ولما ينعم بالشباب التمتع الكافي ... وأذكر في هذه المناسبة أنني فرأت عن كيتس أن موته المبكر كان خسارة على الأدب ، ونكبة للشعر السامي ، إذ حُرِّم الناس عبقرية فذة متفردة ربما كانت تفتح للناس العجب لو بُحِطَ لها العمر ، أما أنا فأعتقد على النقيض من ذلك أن موت الشاعر في بكرة الشباب كان قصيدته الخالدة التي لا يحجبها جاحد ... واعتقدت الى جانب ذلك أن عبقرية هذا الفتى الشاعر إنما جاءت في ومض الصبي ورونق الشباب الأول ، ولم تشأ أن تبقى بعد ذلك الجبال فتبتدل وتهان ، لذلك مضت إلى رهبها آمنة مطمئنة ، تسبح في مقرها السماوي ، وتفرد حرة طليقة قوية ... وشاعر ككيتس ، خلق للثناء والنشاط المستمر والترنم بالشباب والجمال والحرية لا يكون شاعراً — في رأيي — إذا عاش أكثر من عمر الزهر والورد ... فأنا اليوم إن كنت أعجب شاعرنا كيتس على شيء ، فأنا أعجبه لكونه مات هذه الميتة المبكرة التي كانت من أقوى أسباب خاوده وامتقرار أدبه .

والآن ، ونحن نحب الوصول إلى شخصية الشاعر الذاتية ، لا نجد هناك ما نعتمد اليه ونركن إليه إلا الترجمة التي كتبها الشاعر عن نفسه دون أن يدري ماذا كان يسجل ، ويمكننا المنور على هذه الترجمة واضحة صادقة في خطاباته التي فحصها ومحصها اللورد هوجتون ، ثم أضاف إليها التعليقات التي بلغته من ( تشارلس آرميناج براون ) وأخرجها للناس في كتاب أسماه « حياة كيتس ورسائله الأدبية » على جزئين ، وطبعه موكسون في عام ١٨٤٨ ، ولا يزال عشاق أدب الشاعر يتلون هذا الكتاب النفيس إلى اليوم .

وكثر المعجبون بالشاعر وذهب القوم يفتشون عن آثاره ، وكان من نتائج ذلك الظلم العجيب إلى شعره أن طبعت رسائله على حدة ، وأضيفت إليها تعليقات من قلم اللورد هوجتون ، ومن ثم كثرت كتابة التراجم للشاعر وأصبحت منزلته في الشعر الإنجليزي وعند قراء الأدب العالمي إطلاقاً منزلة رفيعة محسودة .

من رأينا في كتابة التراجم لأي أديب أو شاعر أن نمزج حوادث حياته التي تفاعلت مع أدبه بآثاره التي أخرجها للناس ليرى الناس أننا لم نكن مجرد قصاصين لتاريخ حياة مفروغ منه ولا طائل من ورائه ، لذلك نحاول في هذه المحاضرة أن نقص تاريخ كيتس على هذا النمط الجديد مؤملين أن ينال منكم الرضى والقبول .

كان شاعرنا ( جون كينس ) الابن الأكبر لتوماس كينس وزوجته فرانسيس جينجز ، وكان لها سواه من الأولاد أربعة . ولد جون في ٣١ أكتوبر من عام ١٧٩٥ في اسطبلات ( سوان وهوب ليفرى ) بفينبري ، وكان يدير هذه الاسطبلات جد كينس لأمه ، جون جينجز ، الذي استخدم لديه توماس كينس والد الشاعر ، وقد كان شاباً هاجر من غرب البلاد مجهول النسب ، منهم الأمل . ويقال انه كان دون العشرين حينما هبط ( سوان وهوب ) ، ثم تزوج من ابنة سيده في عنفوان رجولته ، وألقيت اليه مقاليد الادارة ، وراح مستر جينجز ينفق أخريات أيامه في هدوء وراحة ودعة .

وفي ٢٨ فبراير من عام ١٧٩٧ ميلادية وُلد جورج الشقيق الاول لشاعرنا ، وفي ١٨ نوفمبر من عام ١٧٩٩ ولد أخوه توماس . وفي ٢٨ ابريل عام ١٨٠١ ولد الطفل الرابع وسمى إدوارد ، بيد انه قضى نحبه في براءة الطفولة الاولى . وفي ٣ نوفمبر من عام ١٨٠٣ خرجت إلى الوجود طفلة عمدها باسم ( فرانسيس ماري ) وفي تلك الاثناء انتقلت الاسرة من ( سوان وهوب ) إلى بيت بشارع جرافين خارج طريق المدينة ، ونكبت الاسرة في السنة التالية لهذا الانتقال بكارثة عنيفة ، ذلك انه حدث في ١٥ ابريل أن توجه توماس كينس عميد الاسرة لتناول الغداء في (صوت جيت) وفي ساعة متأخرة جداً ركب قاصداً منزله ، فقط به جواده أثناء السير في طريق المدينة ، فكان أن تحطمت جحتمه وعثر به الحارس حوالى الساعة الواحدة صباحاً وكان لا يزال على قيد الحياة ، بيد انه لم يكن يقوى على الكلام ، فحمله مع رجال آخرين إلى بيت قريب حيث لبي نداء ربه في الثامنة من صباح ١٦ ابريل عام ١٨٠٤ ومضى عام على وفاة الوالد المروعة ، ثم تزوجت الأرملة من مستر (وليم رولنجز) الذي خلف زوجها في إدارة الاسطبلات . ولما كان من المتحيل أن تقوم بين الزوجين الجديدين سعادة تبعثها المحبة المتبادلة ، فقد افتراقا صرعاً .

كان مستر توماس كينس يأمل أن يرسل أطفاله إلى مدرسة هارثو لينالوا قسطهم من التربية والتنقيف القويمين ، ولكنه كان يدرى أن مدرسة هارثو ستكونه ما لا طاقة له به على الإطلاق ، لذلك رأى أن يعتدل في تفكيره ، وأن يتواضع في أمانيه، فبعث بمجون قبيل الرواة إلى مدرسة سبق أن تعلم بها أقاربه من اسرة جنجز وكان يديرها رجل يدعى مستر جون كلارك من بلدة إنفيلد .

وكان نوماس كولدته جون يستطيع أن يجذب الناس الى شخصيته القوية ، وكذلك كانت فرانيس جينجز في صباها ذات ملاحه ورشاقه وذ كاه ... ومن روائع القصص التي نحكى عن طفولة الشاعر القصة الآتية : كانت الأم مريضة ، ونصحها الطبيب فيما نصح بالهدوء والراحة التامة ، فنصب الطفل جون نفسه حارساً لها مدة المرض ، ووقف لدى الباب شاعراً أسيفاً قد بدأ يرهب به القوم حتى لا يحاول أحد دخول المدع فيقلق راحتها . ويقول عنه الصديق هيدن في ترجمته : « لقد كان في طفولته طفلاً شريراً ، لا يخضع لأى ولا يهدأ لفكرة . ولقد كان في الخامسة من عمره تقريباً حينما أمسك سيفاً عتيقاً مهملأً ، وأغلق الباب ، وأقسم لا يخرج أحد من الغرفة ولكن الأم كانت بحاجة الى مبارحتها ، الا أن صاحبنا هدهدها تهديداً فظيماً حتى أنها لم تملك نفسها عن الصراخ والصرخ فلم يرق قلب الطفل القاسى ، ويسمح لها بالخروج الا حينما حضر بعض الناس ، وكان قد بصر بالمرأة من النافذة في حالتها المرحجة ، ورجاه في ذلك ا . » وهناك قصة أخرى لمحمد هيدن على ايرادها ، وهو في الواقع الفحص الثقة الذى يصدق في التحدث اليها عن طفولة الشاعر . يقول هيدن :

« سألت سيدة مكتهلة ، تدعى مسز جرافتى من فينبررى ، جورج شقيق الشاعر عما ينوى صاحبنا أن يعله ، فأجابها : انه يرجو أن يصبح شاعراً ، فقهرت قائلة : ان هذا أمر غريب .. اا » ثم يعلق هيدن على ذلك من عنده قائلاً : والواقع أن طفلنا كان كلما سأله سائل عن أى شىء ، يحاول أن يجعل اجابته منغومة في المقطع الأخير . وليس أمامى الآن أحسن من هذه القطعة الفنية الخالدة التي رسمها كيتس بريشته القادرة المهدبة مصوراً طفولته ، وبها يمكننا أن نتمين قليلاً على تفهم طفولة الشاعر ، اذى كان مولماً بخوض الجدال وحمل السمك الى البيت . يقول الشاعر كيتس واصفاً الطفل كيتس في هذه النفحة البديعة من خطاب بعث به الى شقيقته : « كان يعيش ولد خبيث ، ولد خبيث ما كر حقاً ، يعنى يجمع الامسك الصغيرة فى أنابيب ثلاث . وكان رغم قسوة الخادمة وشراستها ، ورغم انبهاه الجدة الصالحة ، يبكر غالباً فى الاستيقاظ ، ويذهب الى الجدول ويبيده صنارته ، ويؤوب الى المنزل ومعه الامسك الصغيرة التي لا يكاد يزيد حجمها عن خنصر طفل صغير . . . »

أرى من الصعب على نفسى وأنا أتلو هذه القطعة الساذجة أن أهمل التعليق عليها ، فالشاعر يعنى جدولاً بذاته ، ويتحدث عنه فى عام ١٨١٧ ، مستوحياً ذكريات

الصبي الحبيبة ، ولقد جعلته نفس هذه الذكريات العذاب يكتب في صدر ( أنديميون ) معترفاً إلى شقيقته ( بيونا ) برؤيته وجه ديانا يطل عليه من مماء البراءة فيقول شاعرنا متحدثاً عن تلك الطفولة المرحية الحلوة : « وكنت غالباً أما أستعيد في ذاكرتي أيام الطفولة حيث كنت أصنع السفن من الريش الملون والعيذان والأوراق المتساقطة ويكون ( نيبتون ) إله البحر حامى محيطى الضحل » .

إن ما يمكننى أن أقوله حيال ذلك الايجاء الجبل هو أن الشاعر لا يستخدم خياله الخصب وحده ولكنه يستخدم إلى حد بعيد ذكرياته الحيقة المختزنة في عقله الباطن ، تلك الذكريات التي كان ميدانها إنتقياد وإده وونتون — أى ما بين منزل جدته لأمه في إدمنتون وبين مدرسة متر كلارك في إنفيلد . ونحبرنا متر شارلس كلارك أن كيتس ابتدأ حياته الثقافية وأنهاها في تلك المدرسة . . . ثم يضيف قوله : « لقد كان كيتس طفلاً من الاطفال الصغار الذين لم يخلصوا بعد من ملابسهم الصبانية ، حينما قدم المدرسة ليكون تحت رعاية أبى . . . بل وربما كان أصغر طفل في مجموعة تراوح بين السبعين والثمانين صبياً . . . » ثم يقول متر كلارك : « لقد كان جذاب الوجه ، محبوباً ، معروفاً لدى الجميع ، حتى ان أمى كانت تحبه . » ويتحدث كلارك هذا عن والد كيتس قائلاً : « رجل يمتاز برفقه وحنن فهمه ، واحترامه لشخصيته ، وكان طفله جون نسخة أخرى منه في ملامحه وشخصه ، ذا عيني سوداوين جيلتين ، وشعر أشقر بديع ، أما الشقيقان الآخران فكانا إلى ملامح الأم جدًّا قريبين ، طويلي القامة ، رقيقى الملامح ، يضاوي الوجه . . . »

ويحدثنا كلارك أن جون في مسهل حياته الثقافية ، كان فتى عادياً ، فلم تبدُ عليه مخايل النبوغ أو الذكاء المنمط ، ولكن الذى يؤثر عنه فيما بعد هو أنه صار يسبح على كافة الموضوعات التي كان يعالجها روحاً قوية كشافاً جباراً . . . يقول كلارك : « لقد كان تلميذاً مجدداً منتظم الأمور » ثم يضيف إلى ذلك قوله « كان من عادة أبى ، في عطلة كل نصف سنة ، أن يتقدم إلى الطلاب الذين يقومون بنصيب كبير من العمل الاختياري بجوائز كثيرة . ولقد كان كيتس واحداً من الذين حصلوا على الجائزة الأولى مرتين في السنتين الأخيرتين اللتين قضاها بالمدرسة . كان يتوجه للعمل قبل أن يدق النافوس الاول ( التنبيه ) ، وكان ذلك في الساعة السابعة صباحاً عادةً ، وكان غالباً ما ينفق أوقات الفراغ على هذا المنوال ، ففي الوقت

الذي يلهو زملاؤه ويلعبون كانت برسى غالباً بالمدرسة .. منفرداً .. يعالج ترجمة موضوع عن الفرنسية أو اللاتينية ، وهكذا لم يكن بدرى شاعرنا الخطر الذي كان يمرض له نفسه ، بأجهاده عمقه وجسه : في حينما يجب الترويج عن النفس والتخفيف عنها بالرياضة ... بل ويقال إنه لم يكن يقبل على الرياضة ، بل كان يزاوها مضطراً مدفوعاً من أحد أسانذته ... !

ذكرتُ انه كان محبوباً من الجميع : أجبيل كان ذلك لروحته السامية ، وأخلاقه الرضية ، بيد أنه حينما يحتاج كنت تظهر منه عوارف يعجز أعظم الممثلين انقساناً لفهم عن الاضطلاع بها ، ولقد كان كثير الشبه بالممثل الثقات إدموند كين في صورته وعواطفه المتأججة . بصرت به مرة وقد اختبك مع مساعد أحد الاساتذة في معركة حامية سبها أن ذلك المساعد لطم أخاه توم لطمه قوية على أذنه . ولقد كان في مقدور الرجل أن يحمل جون وبضعه في جيبه ولكن جون عرف كيف يجرحه ويضربه . كان من الصعب عليه في بعض الأحيان كبح شعوره وكتب عواطفه ، ولقد كان أخوه جورج يسخر منه حينما يحاول ضربه ، وقد كان جورج طويل القامة قوى البنية ، وكان جون يحتاج وتصيه آخر الأمر نوبة عصبية عميقة ... أما هذا الغضب الحار ، فقد كان سحابة صيف ، فجون محبوب من أصدقاءه محب لهم ، ولقد دلل في فرص كثيرة على ذلك وكان محبوباً كذلك لأثفته وشحمه وإيائه وكرمه ، حتى انني لا أكاد أذكر كلمة سيئة وجهها اليه أحد من تعرفوا اليه ، سواء في ذلك أصداقه فرقتة أو غيرهم ممن تقدموه .. »

ويقول ادوارد هولز ، وهو أحد زملاء الشاعر في المدرسة ، في الفصل الذي كتبه عنه في الكتاب الذي جمعه اللورد هوجتون ، ولا ننسى أن هولز هذا هو الذي عمر حتى كتب حياة موزارت : —

« ما كان كيتس متعلقاً بالقراءة في صغره ، وإنما كان مغرماً بالمشاجرة ، ولوعاً بالمراك ، حتى لقد كنت أحسبه على أهبة دائمة للمراك مع الناس قاطبة في الصباح وفي الظهر وفي المساء . على السواء غير مستثن من ذلك أخاه ا لقد كان المراك طعامه .. ولقد كان يحسب الناظر اليه أن صاحب هذا الوجه الحالم الجميل لا بد وأن يصبح عظيماً يوماً ما في الجيش مثلاً .. وأما في الادب فلا .. وسيلاهظ قراء هذا الفصل أن هذه الحالة .. مالة انجابه الى الآداب — جاءت فجأة دون إعداد ... كان

متفوقاً على الدوام على أقرانه ؟ أما وقع جماله المفرط على روحى منذ اللحظة الأولى التى أبصرته فيها ، فلمت أستطيع وصفه على حقيقته - فهذا النزوع الى العراك والشجار وهذه الأخلاق النبيلة ، وهذه العواطف الرقيقة الشريفة التى تأسرها دمة مَرَاقَة ، وهذا القلب الطيب الصافي من الأوشاب ، الذى يطرب لكل ضحكة مجلجلة - طرباً قوياً - كل هذه الصور تساعدنا فى رسم الشاعر كيتس إبان طفولته ، ثم نضيف إليها جمال وجهه المتناهى وأخلاقه النادرة الآسرة ، وعندها نرى أنه خليق بمكانته السامية من نفوس زملائه .

فاذا سمعنا هذا القول من هولمز أحد زملائه فى الطلب ، عدنا الى كلارك نجمل صاحب المدرسة ، نستمع الى حديثه عن كيتس فى آخر عهده بالمدرسة ، أثناء السنة والنصف الأخيرة . يقول كلارك إن كيتس كان يقطع ساعات تناول الغذاء بالمطالعة ، ووصفه بأنه كان عظيم الذكاء جبار الذكاء ، وأنه قرأ قراءة مدهشة واسعة . يقول كلارك : « الذى يمكننى أن أذكره الآن أنه ما من شك فى أنه التهم كل ما وعته المكتبة من الكتب والمخطوطات التى كانت تتكون من خلاصات الرحلات والسياحات مثل مجموعة هافور والتاريخ العام وكتب تاريخ روبرتسون عن اسكتلندة وأميركا ، وشارلز الخامس ، وكل مؤلفات مس إدجورث ، مضافاً الى كل ذلك أعمال أخرى قيمة ، تفيدنى تفقيب الشببية . أما الكتب التى كان يركن إليها كثيراً فقد كانت « البانتيون » لتوك والقاموس القديم للمبرر الذى كان يحفظه عن ظهر قلب تقريباً والبوليمتس لسييز ، ومن هنا كان ابتداء صداقته للميثولوجيا الاغريقية . ولقد أغرم بالابداء غراماً عظيماً حتى انه ترجم منها جانباً كبيراً قبل أن يغادر المدرسة . » ويقول كلارك : « مع هذا فانتى أذكر أنه عرض على قبل أن يتم الرابعة عشرة من عمره آراء له فى الانيد وذكر له جملة عيوب فى القصيد دهشت منه كثيراً حينما سمعتها . ولقد كان لتاريخ بيرت والاكاسمير للبت هنت الفضل الأَعْظَم فى توجيه كيتس التوجيه الصحيح فى نشدان الحرية المدنية والدينية فى شعره . وفى أثناء أيامه الأخيرة بالمدرسة ساءت صحته واللاته . ولقد طانت المسكينة الأصرين من روماتزم حاداً أصابها فى عرض حياتها ، فلما دهاها المقدار بالتمرين الرئوى لم يعملها كثيراً بل قضى عليها وشيكاً . أما كيتس فقد فنى فى خدمتها أثناء المرض المرهق المضنى ، فكان يقوم الليل بتمامه بقرب فراشها ، يجهز لها الدواء ، ويقدم لها الغذاء ، ويتلو عليها القصص قصد تليتها والتخفيف عنها . وعند ما حضرتها المنية تدفق حزنه وانهمرت لوعته ونخاذلت قواه ، حتى لقد كان يستأهل الرحمة والشفقة ممن كان يقع بصبرهم عليه ... »